12

في ضيافة الملك البريطاني .. مذكرات الجنرال ف. ب. ريربرج حول ترحيل اللاجئين الروس إلى مصر

صار اليوم معلوما وبشكل واضح ، الكيفية التي جاء بها في ربيع عام ١٩٢٠ عدد ٤٥٠٠ لاجئ روسي إلى مصر بفضل الوثائق الأرشيفية[٣٩٦] ، والمذكرات[٣٩٧]. غير أن المذكرات التي عثرتُ عليها مؤخراً في أرشيف مكتبة "روسكي زاروبيج" بموسكو ، والتي كتبها اللواء ورئيس الأركان فيدور بيتروفيتش ريربرج (تبلَيسي ١٨٦٨/١٠/٨ – الإسكندرية ١٩٢٨/٩/١٤)[٣٩٨] تضيف إلى لوحة ترحيل اللاجئين من روسيا ألوان زاهية جداً وغير متوقعة، بالإضافة إلى ذلك فإنها تمتلك قيمة أدبية .

يعد المشهد الذي يصور لنا نزوح اللاجئين الروس ، وإبحارهم من نوفوروسيسك إلى الإسكندرية ، وعملية تسكينهم في معسكر اللاجئين في التل الكبير الواقع بين القاهرة والاسماعيلية جزءاً صغيراً في مذكرات اللواء ف.ب.ريربرج . . وقد تم كتابتها في الإسكندرية في منتصف عشرينيات القرن الماضي ، وهى عبارة عن عدة كراسات متشابكة ، كتبت على الآلة الكاتبة ويصل حجمها لأكثر من ١٥٠٠ صفحة، وكتبت بواقع مسافة واحدة بعرض الصفحة . فيما كُتبت الفقرة بشيء من الإيجاز .

---

٣٩٦ عن مقالة : Гости английского короля. Воспоминания генерала Ф.П. Перберга об эвакуации беженцев в Египет ، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى» ، إصدار معهد الاستشراقالتابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، القنصلية المصرية ، حافظة رقم ٣/٨٢٠ ، وثيقة ٢١٠ ، السطر ٨:٦ ومن السطر ١١-١٦ .

٣٩٧ أنظر : «عبر البحار» من مذكرات ف . ي . تشيريكوفا أوليانيشوفا \\ إيفان ياكوفليفيتش بيليبين ، مقالات ومراسلات : مذكرات عن الفنان ، ١٩٧٠ من صـ١٨٢- ١٨٥ . أنظر : كذلك «على متن الباخرة» س . م . بيلياييف \\ الهجرة الروسية في أوروبا ١٩٢٠- ١٩٣٠ ، سانت بطرسبورج ، ٢٠٠٥ . صـ ٢١٥-٢٢٨ .

٣٩٨ فلاديمير بيلياكوف «مقبرة الروس في مصر» ٢٠٠١ ، صـ ٢٩ .

في المساء[٣٩٩] عندما بدأ يحل الظلام، كانت «ساراتوف»[٤٠٠] ترفع مراسيها، وبدأت قاطرتان تدفعنا بعيداً عن المرسى. وعندما بدأ المودعون في حلكة الظلام القادم الإختلاط بالأشياء المحيطة بها ارتجفت «ساراتوف» القديمة وتحركت المسامير في مؤخرة السفينة، وخرجنا إلى البحر المفتوح!

وهنا فقط يمكننا أن نقول «وداعاً روسيا!» .

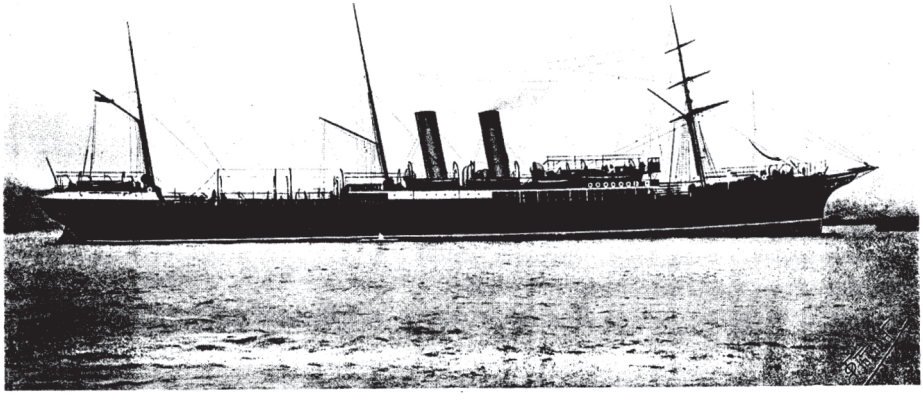

Пароходъ «Саратовъ».

صورة للسفينة الروسية "ساراتوف"

"

في صباح اليوم التالي خرج جميع ركاب "ساراتوف" من غرفهم، وأخذوا يتأملون وجوه بعضهم البعض في نظرات تشوبها الريبة والقلق. ثم شرعوا في التعارف فيما بينهم إلى حد ما وفي المساء أخذوا يتجولون مثنى مثنى على سطح المركب ذهاباً وإياباً، وقطعان كاملة من الشباب الذين لا يبالون بأي شيء. وأخذ كثير من الأطفال يمرحون وهم فرحين بإمكانية الجرى على سطح السفينة النظيف، ومباشرة الألعاب الطفولية.

٣٩٩ الخامس من مارس/آذار ١٩٢٠ .

٤٠٠ ساراتوف هي إحدى سفن الأسطول التطوعي الذي بُنى في إنجلترا عام ١٨٩٢ ، وتصل حمولتها إلى ٨٩٥٠ طن ، وعدد الغرف بها ٧٦ غرفة ، وعدد المقاعد على ظهر السفينية للركاب ذوي المسافات البعيدة يصل إلى ١٥٢٠ مقعد (بوجنيبول . م ، مقتطفات من ظهور ونشاط الأسطول التطوعي في عامه الخامس والعشرين . سانت بطرسبورج ، ١٩٠٣ ، صـ ٢٣٤ : صـ ٢٣٥) أثناء إبحار السفينة ساراتوف من نوفوروسيسك إلى الإسكندرية كان علي متنها ١٤٠١ راكب (أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم٣١٧ ، حافظة ٨٢٠- ٣ ، وثيقة ٢١٠ ، السطر ١٢).

كان معنا على متن السفينة فيلق طلبة المدرسة العسكرية بالدون (التي كانت تحمل اسم الإمبراطور ألكسندر الثالث سابقاً) ، وكان يترأسهم مدير الهيئة العامة لأركان الحرب الليفتنانت جنرال ألكسندر فاسيليفيتش تشيرياتشوكين [٤٠١] .

كثيرة هي تلك الآمال التي كانت لدى الكثيرين ، من ركاب السفينة ! ولسبب ما أعتقد تشيرياتشوكين أنه سيتم إرسال فرقته إلى لندن مباشرة ، وقد تحدث إلى أحد المودعين من على سطح «ساراتوف» أنه بمجرد وصوله إلى لندن من المرجح ، أن يمثل أمام الملك البريطاني ... وكان الكثيرون يستمعون بحسد ، إلى تخمينات وظنون تشيرياتشوكين ولم يكن لدى ركاب السفينة أي تصور عن الوجهة التي سيذهبون إليها .

في اليوم الثاني والعشرين [٤٠٢] ظهر لدينا العديد من المهام ، بينما نحن لم نَزلْ على متن السفينة مثل : «توزيع اللحوم ، والخبز والشاي والسكر» . وأُطلق علينا بعض الركاب مسمى «رجال العنابر» ، حيث كان يتعين عليهم الصعود للعنابر للحصول على المواد الغذائية، وقد عهد للصبية الصغار القيام بهذه المهام ، الذين جمعوا بين «خدمة المجتمع» والمزاح. وتم اختيار عدد من الركاب وخاصة من السيدات ؛ لتولي إعداد الطعام في مطبخ السفينة ولكي نكون منصفين ، فقد حصلنا في الأيام الأولى على قدر لا بأس به من الأطباق الجيدة .

في الثالث والعشرين وصلنا إلى القسطنطينية ، تحت راية العلم الأصفر [٤٠٣] وهنا علمنا جميعاً أن السلطات الروسية قد نجحت في الحصول على طلب لإنزال كافة ركاب السفينة إلى القسطنطينية . وفي الصباح وصل إلى السفينة ممثل الجيش التطوعي رئيس الأركان الجنرال أجابييف (الشقيق الأصغر للعقيد أجابييف) الذي لقى مصرعه في الحادي والثلاثين من مارس ١٩٠٤ مع الأدميرال ماكاروف [٤٠٤] في إنفجار سفينة (بيتروبافولسك) .

---

٤٠١ أنظر : كتاب فلاديمير بيلياكوف « طلاب في قناة السويس « عن وصول فرقة طلاب المدارس العسكرية بالدون إلى مصر \\ مجلة الأرشيف الشرقي ، العدد رقم ١٨ \ ٢٠٠٨ من صـ ٥٠ : صـ ٥٤ .

٤٠٢ الثاني والعشرين من فبراير/شباط .

٤٠٣ العلم الأصفر هنا ، يستخدم كإشارة إلى وجود أمراض معدية علي متن السفينة .

٤٠٤ ماكاروف ستيبان أوسيبوفيتش ، ١٨٤٩/١/٨ ، نيكولايف - ١٩٠٤/٤/١٣ بالقرب من ميناء «آرثر» ، نائب الأدميرال في بداية الحرب بين روسيا واليابان ١٩٠٤-١٩٠٥ ، قائد سرب المحيط الهادئ. وكان مسئولاً عن الدفاع عن ميناء آرثر ، وتم تدمير البارجة «بيتروبافولسك» من جراء لغم إنفجر بالقرب من ميناء آرثر . ويضع ف . ب . ريربرج هنا تاريخ وفاة الأدميرال ماكاروف ولكن وفقاً للنمط القديم .

بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يرغبون ، في البقاء في القسطنطينية أو في الجزر. فكان يتعين عليهم المساهمة بضمانات مالية . اقتربت سفينة بالقرب من «ساراتوف» لتحمل باقي الركاب إلى الجزيرة مباشرة . ومن كان لديه وفرة من المال ، كان ينقل فوراً إلى القسطنطينة . وكان من بين هؤلاء الذين نزلوا إلى الشاطيء بدون أي صعوبة البروفسور ب.ب.ستروييف[٤٠٥] . وقد كنت أنا وأسرتي ضمن الأفراد ، الذين حصلوا على تصريح للبقاء في القسطنطينية ... وقد منحونا ثلاث ساعات لجمع أغراضنا . وقد أخذ أولئك ، الذين حصلوا على إذن بالنزول بالخروج سريعاً لأنهم لم يكونوا يرغبون في الإبتعاد لفترة طويلة عن الوطن روسيا ويأملون في العودة إليه سريعاً . وتوجه البعض تارة إلى القبطان ، وتارة إلى المفتش ، وتارة أخرى إلى الحاكم العسكري بطلبات للإفراج عن أمتعتهم . ولكن بدا ذلك بالنسبة للكثيرين أمراً مستحيلاً ، فعند شحن الأمتعة من نوفوروسيسك تم وضعها بشكل عشوائي تماماً ، لدرجة أنه كان من الصعب علينا الحصول على أغراضنا . وعندئذ سمح لنا الجنرال أجابييف ، الذي كان علي متن السفينة بناءً على طلبي أن نواصل رحلتنا على «ساراتوف» حتى قبرص ، وحين يتم تفريغ الأمتعة كلها ، نأخذ متاعنا ونعود أدراجنا . وشعرنا أننا نسافر مع أمتعتنا ، وليست أمتعتنا هي التي تسافر معنا . وقد تم إعطاؤنا الأوراق المناسبة ، وكان كل من يتمكن من العثور على أمتعته كاملة ، يذهب ليركب في السفينة الصغيرة ، ويرحل إلى الجزيرة .

في صبيحة اليوم التالي ، عبرت «ساراتوف» إلى مياه بحر مرمرة ، وكان الجو أكثر من رائع ، حتى أن الركاب بدأوا يستمتعون بالمناظر الطبيعية التي لم تكن تثير في حد ذاتها أي اهتمام ، ولاتصلح أن تكون حذاء لمناظر شواطئ البحر الأسود الرائعة. وكان الشيء الأكثر إمتاعاً رؤية أثار الحرب التي جرت قبل وقت قريب في هذه المياه ، والتي تمثلت في بقايا السفن الغارقة والملقاه على شاطيء بحر مرمرة ، وعلى ما أذكر ، الجزء الأسفل من بارجة حربية مقلوبة .

لم تكن الرحلة حتى قبرص تثير في حد ذاتها أي اهتمام . وحسب العادات المكتسبة في روسيا المسكينة والمسترسلة في الكلام ، كنا نشهد بشكل يومي داخل عنابر وحجرات الركاب العديد من الاجتماعات والأحاديث والأوامر والقرارات عديمة الفائدة .

٤٠٥ ستروييف بيتر بيرنجاردوفيتش ، (١٨٧٠/٢/٧ برما ، ١٩٤٨/٨/٦ باريس) ، فيلسوف بارز ، محلل سياسي وإجتماعي وشخصية إجتماعية وسياسية مرموقة .

لقد عانت السفينة من أفراد قلقين ومشوشين . وكان يوجد فوق سطح السفينة محطة لإرسال البرقيات ، وكانت تعمل لبعض الوقت . وبدأ بعض سكان الجزيرة في ترويج أنباء على متن السفينة من خلال التلغراف اللاسلكي ، وسرعان ما بات يطلق على هذه الأنباء اسم «في الراديو» .

وطئت أقدامنا أراضي قبرص في الأيام الأولى من شهر مارس . وكنا نشاهد بإستمتاع من فوق سطح السفينة المناظر الخلابة للشواطيء الصحراوية لتلك الجزيرة . وبعد انتصاف نهار اليوم وجدنا أنفسنا نقترب من ميناء كانت تقف به سفينة واحدة فقط ، وهي طراد إنجليزي صغير يرابط هناك بصفة دائمة . وعلى ما يبدو أنها مدينة صغيرة . ورأينا ثكنات علي يمين شاطيء الجزيرة ، ولم تعبأ «ساراتوف» بإشارة المرشد البحرى ، وإبتعد عن الشاطئ القارب الذي كان يعترض طريقنا .

بموافقة المرشد البحرى استدارات «ساراتوف» على شكل نصف دائرة إلى اليسار ودخلت الميناء الذي لم يكن مرئياً من بعيد . كان من المستحيل ألا نعجب بمناورة تلك السفينة الضخمة ، التي طارت كقارب صغير إلى الميناء ، والذي كان بالكاد يتسع لسفينتين» ، وإلى تلك البوابات الضيقة حتى من بعيد كانت تبدو كأنها بوابات «ساراتوف» . مثل ماكان الحوذي الجيد في الأيام الخوالى يستطيع أن يدخل من أبواب عزبة رجل أستقراطى ، ثم ينحرف بشدة جهة اليمين ، ويقترب بسرعة من مدخل صاحب العزبة .

كانت المدينة التي اقتربنا منها هي مدينة فاماجوستا . وهى مدينة صغيرة على ميناء قبرص . وبمجرد أن وصلنا ظهر حراس الميناء على سلالم سفينتنا ولم يسمح لأي من الركاب، بمجرد الخروج إلى السلم . وخرج الجميع إلى سطح السفينة ؛ ليشاهدوا المناورات التي تقوم بها القاطرة البخارية الصغيرة ، التي تجر ذهابا وإيابا عربات قطار صغيرة، وبدأ الجميع يفكر في المصير الذي ينتظر كل منا . وفي المساء وصلت سفينة تقل ممثلي السلطة البريطانية المحلية ، وكانوا يتحدثون مع إدارتنا حول شيء ما ، ولم يكن الركاب يدرون بما يجرى حولهم ، إلا بعد أن انتهوا من حديثهم ، وخرجوا علينا بهذا الأمر : يتعين على جميع ركاب «ساراتوف» من صباح باكر الذهاب في مجموعات ، تضم كل مجموعة مائتين شخص إلى الشاطيء للتطهير وإبادة الجراثيم ، ثم بعد ذلك سيتجهون إلى

الحجر الصحي وينتقلون أولاً إلى عنابر الميناء ، ثم بعد ذلك إلى معسكر أسرى الحرب ،بعد أن يتم إخراج الأتراك من ذلك المعسكر .

بالفعل وبمجرد أن وصلت «ساراتوف» إلى المرسى ،جاءت عربتان تجرهما الخيول . أحدهما محملة بالخبز الأبيض ، والثانية محملة بالبرتقال . فعلى ما يبدو أن أحد أثرياء اليونان قد علم بوصول سفينة تحمل لاجئين من الروس المساكين ، فقرر أن يتبرع بحوالي ألف ونصف رغيف خبز ،وكمية كبيرة من البرتقال . وساهمت مثل هذه الأمور التافهة في تأجيج الرغبة لدى غالبية الركاب بالبقاء في قبرص ، والنزول بسرعة إلى الشاطيء ، الأمر الذي لابد وأن يحدث بسرعة ، لأنه في اليوم التالي لوصولنا، بدأ في الصباح الباكر يعمل ونش البكرة في مؤخرة السفينة ، وبدأ بحارة الطراد الإنجليزى في جمع متاعنا من عنابر السفينة وإنزاله إلى الشاطيء ، ولكن تلك الشواهد التي تدل على النزول السريع للشاطيء كانت عند الركاب قليلة وغير كافية ، لذا عقدوا اجتماعات في العنابر ، والتي قرروا فيها كتابة التماس إلى الحاكم العسكري بالسفينة يطالبونه فيه بسرعة إنزالهم . وبدا في ذلك الإلتماس إشارات مبالغ فيها لأجل تليين القيادة البريطانية . وكُتب في الإلتماس كذلك أننا لدينا على متن السفينة عدد من المرضى بأمراض معدية ، وإذا لم يتم إنزالنا سريعاً من السفينة ، سنصاب بتلك الأمراض ، وأن القمل يغطي أجسادنا كاملة ...إلخ .

كان لهذا الالتماس عواقب غير متوقعة : في صباح اليوم التالي بدأ البحارة الإنجليز بالفعل في شحن حقائبنا وإعادتها من المرسى إلى السفينة . وبعد إنتهاء عملية الشحن ، صدر الأمر إلى «ساراتوف» بالمضي في طريقها لحين صدور أوامر أخرى ، حكى لي فيما بعد ، من هم على دراية ببواطن الأمور ، أنه بمجرد أن تلقى الحاكم العسكري البريطاني الإلتماس ، سرعان ما إرتعد خوفاً لأن الجزيرة بأكملها ستكون مهددة بانتشار أمراض معدية ، وأمر بوقف عملية تفريغ السفينة ، وسرعة إخراجنا من الميناء . وكان ذلك بفضل الالتماس الذي قدمناه . وانتابت حالة من السخرية الكثير ، ممن كانوا بيننا ممن لم يحبذوا النزول في مدينة فاماجوستا ، وصاروا يتهكمون على أصحاب هذا الإلتماس .

عندما كانت سفينتنا واقفه في الميناء ، اقتربت سفينة «خرسون»[٤٠٦] من فاجوميستا، ودخلت إلى الميناء كما دخلنا في نفس اليوم . في صباح اليوم التالي صدرت الأوامر لكل

٤٠٦ خيرسون ، إحدى السفن الخمسة التي كانت تنقل اللاجئين الروس من نوفوروسيسك .

من «ساراتوف» و «خرسون» بالإبحار إلى الإسكندرية ، التي وصلنا إليها في صبيحة السابع من مارس . وعند دخولنا الميناء اعتلى الكثيرون سطح السفينة ، وإنتابت الجميع حالة من البهجة لرؤية مدخل المدينة . كنت أنظر إلى الإسكندرية بقدر من اللامبالاة ؛ لأنني تذكرت أننا سنظل على متن السفينة إلى أن تتم عملية تفريغ الحمولة ، وسنعود مرة ثانية إلى القسطنطينية . إلا أن إدارة السفينة وافقت على أن تأخذ معها الأمير جوليتسين، ورفضوا أن أذهب معهم ؛ بحجة أنهم لا يعلمون الوجهة التي ستبحر إليها السفينة . ورضخنا جميعنا للأوامر ، وتم حجزنا داخل الحجر الصحي ، ولم تشفع لنا الأوراق لمنع خضوعنا لذلك الحجر ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب ، بل تم تفتيش كل المتعلقات الخاصة بنا ، وحصلنا على حقائبنا في الحجر الصحي ، بعد أن تم إنزالها من على متن البارجة . وكان التعامل مع الأمتعة في غاية الحدة والصرامة . وقد بدا لنا ذلك جلياً ، حيث تهشمت بعض الحقائب وتم سرقة ما بداخلها . ومنذ هذه اللحظة ، تحولنا جميعاً إلى قطيع من الحيوانات البائسة التي لا حول لها ولا قوة ، وتم الزج بنا في المبنى الدائري للحجر الصحي . وهناك نأكل (حتى نشبع) ونشرب ونستحم ، ولكن لا يسمح لنا بالخروج ، ولا يُعيرنا أحد ثمة انتباهاً. وطوال فترة احتجازنا داخل الحجر الصحي ، لم يتحدث إلينا أحد عن مصيرنا بعد ذلك . وكان من يعرف من بيننا اللغة الإنجليزية ، يذهب إلى الإنجليز ليتحدث معهم ليعرف مصيرنا ، ويبلغوننا بأنه بعد إنتهاء فترة الاحتجاز بالحجر الصحي سنتوجه إلى القاهرة وضواحيها ليتم توزيعنا هناك ، وسيتم إستئجار عدة فيلات لنا ، ولن يكون الجو حاراً هناك ، وبالنسبة للعائلات سيتم تسكينهم في منازل خاصة ، أما غير المتزوجين سيتم توزيعهم على الفيلات ، وسيُستأجر لهم طباخين وخدم من العرب . كان هناك العديد من التساؤلات التي يطرحها اللاجئون ، ولكن دون مجيب . وقد طلب البعض دعوة القنصل الروسي بالإسكندرية ويُدعى بيتروف[٤٠٧] ليأتي إلينا في الحجر الصحى . وقد أثارت هذه الدعوة ثورة عارمة من الجدل لأنه لا أحد يعلم أي شيء عن بيتروف هذا ، فالكثير منا كان يخشى الوقوع بين براثن أحد صنائع البلاشفة أو الماسونيين !

في نهاية الأمر وصل القنصل وتوجه إلى أحد الأماكن المخصصة ، لعقد إجتماع مع مُمثلينا وتم اختيار ثلاثة فقط من بيننا لحضورهذا الاجتماع الذي كان الإنجليز طرفاً فيه ولكي لا يقوم أحد من غير المدعوين بالدخول إلى قاعة الإجتماع ،ولمزيد من الجدية وقف

٤٠٧ بيتروف ألكسندر ميخائلوفيتش (١٨٧٦/٩/٢٢ موسكو- ١٩٤٨/٨/٦ الإسكندرية) شغل منصب القنصل الروسي في الإسكندرية منذ عام ١٩١٠ . وقد رفض الإعتراف بالسلطة السوفيتية مثله مثل أي دبلوماسي روسي يعيش في مصر .

بعض الطلاب العسكريين علي بوابات المكان للحراسة ! أو هكذا قيل لي (حيث إنني لم أكن ضمن الممثلين الذين تم اختيارهم) .

في المساء امتلأت أركان غرفتنا بالشائعات حول نتائج ذلك الإجتماع . فقيل إن القنصل بيتروف لم يكن يعلم أي شئ عن وضعنا . بل وكان يتهكم ويسخر منا ويقول لا أحد سيمنحنا فيلات هنا كما يُقال وإننا قد إبتكرنا ذلك الاسم الذي أطلق علينا «ضيوف الملك البريطاني» . ولن نسكن في مساكن فاخرة بالقاهرة ولا ضواحيها . بل سيتم نقلنا إلى معسكرات أسرى الحرب الخاصة بالأتراك ، وذلك بمجرد أن يتم إعادة الأسرى الأتراك إلى وطنهم . كان من الطبيعي أن يستاء الجميع من حديث القنصل ، ووصل بنا الحال إلى أن فكر البعض في كتابة التماس أو شكوى ضده ، وقال البعض أن الصورة اتضحت الآن ، وأصبح جلياً أن هذا القنصل ما هو إلا أحد صنائع البلشفية ، ويقول هذا الكلام عن عمد لكي نبدأ بالاحتجاج ، وتسوء علاقتنا بالإنجليز ، خاصة وأن الجميع يعلم جيداً أن الملك البريطاني هو من وجه لنا الدعوة ، بأن نكون في ضيافته، ويتعين على الجميع أن ينظروا إلينا على أننا ضيوف الملك ، وبالتالي لا يليق بالمقام الملكي أن يضع الملك ضيوفه في معسكرات لأسرى الحرب .

قبل وقت قصير من مغادرتنا طلب قائد «خرسون» أن نذهب للاستحمام والتعقيم وقد علمنا منه أن كلتا السفينتين ، ستعودان أدراجهما مرة أخرى إلى القسطنطينية . وهكذا قذف بي المصير لكي أحضر إلى مصر !

قبل ثلاثة أيام من مغادرتنا قالوا لنا إن فترة بقائنا في الحجر الصحي بالإسكندرية قد إنتهت ، وحانت ساعة الرحيل إلى القاهرة . حيث تم تقسيمنا إلى مجموعتين : القطار الأول سيغادر في الرابع عشر . والثاني سيغادر في اليوم التالي . وسرعان ما ظهر الطمع على الجميع . حيث رغب الكثيرون استقلال القطار الأول ؛ خوفاً من أن تستحوذ المجموعة الأولى علي كل المساكن الفاخرة المخصصة للاجئين ، وبالتالي فلن يبق أمام المجموعة الثانية سوى الرضا بما تبقى من المجموعة الأولى ، ونظراً لأن غالبية اللاجئين لم تكن لديها ثقة في الجنرال خفوستوف ، فقد تم تشكيل لجنة شارك فيها كل من : بروتاسيف، وباشماكوف ، وما نجلير . وكانت المهمة الرئيسة لتلك اللجنة تتمثل في وضع كشوف بأسماء المجموعتين . غير أن اللجنة لم تفلح في عملها ، وبدأ يوجه إليها سيل هائل من الاتهامات . وعلي رأسها تهمة تقاضي الرشاوي .

وفقا لروايات الأفراد الأكثر نزاهة ، لم يكن هناك عدل في عمل اللجنة . بل كان العامل الرئيس يتمثل في المحسوبية وطبيعة الرتبة واللقب اللذين يحملهما اللاجيء. وكثرت الأقاويل التي تروج إلى أن الجميع الآن باتوا متساوون ولم يعد للرتب السابقة أي وزن هنا ..إلخ ، لقد تملكنا جميعا الاندهاش داخل المخيم . وفي المساء جاءتنا اللجنة لمراجعة قوائم أسمائنا قبل المغادرة . وبدلاً من أن يقوم سكان المخيم بالإجابة على أسئلة اللجنة ومنحها البيانات الخاصة بهم ، التف الجميع حول بروتاسيف وباشماكوف وأخذوا يكيلون لهم الاتهامات بسبب تقصيرهم في عملهم بتلك اللجنة ، وطلبوا من اللجنة أن تعطيهم قوائم الأسماء التي وضعتها لكي يقرأوها بأنفسهم ، وإلا فلن نعطيكم البيانات الضرورية الخاصة بنا . بل وقفز أحد اللاجئين ويُدعى فيوريير على المقاعد وقال بصوت عال، بأنه لن يسمح لتلك اللجنة بمغادرة الغرفة ، إلى أن تجيب على كل الأسئلة التي طرحناها عليها، ولن يخرجوا من هذه الغرفة الإ على جثته . ثم جاء الكاتب سيرجي يابلونوفسكي[٤٠٨] ليهديء من غوغائية الموقف وبأسلوبه الجيد الذي لا يكيل فيه الإتهامات جزافاً لأي طرف من الأطراف ، حاول إصلاح ما أفسده زميلنا الذي وبخ أعضاء اللجنة بما يكفي وهدد بفضح ممارسات السيد بروتاسيف . لقد كان المشهد غير لائق تماماً ، وكان يستحق قلم المبدع مكسيم جوركي لكي يقوم بوصفة . لم يكن اللاجئون يتصرفون بوصفهم نخبة مثقفة ، بل كانت تصرفاتهم تشبه إلى حد كبير تصرفات السكارى من الحرفيين. فالسبب وراء تلك المشكلة هو الرغبة العارمة في الاطلاع على تلك القائمة وإجبار اللجنة حتى ولو بالقوة على سحب الجنرال خفوستوف وأسرته من القائمة ؛ نظراً لنجاحه في زرع بذور الفرقة والشقاق بين صفوف كل من كان على متن السفينة ، كما نجح في اللعب على وتر التباين الطبقي بين الركاب . وبعد وابل السباب الذي وجهه مخيمنا على لسان كل من فيوريير ويابلونوفسكي ، تم قراءة قائمة الأسماء وخيمت خيبة الأمل علي الجميع حيث لم يظهر اسم خفوستوف ولا أي من أعضاء أسرته داخل القائمة و أصبح لمحاربينا مظهر كلب الصيد الذي اتخذ وقفة جعلت العصفور بدلاً من السمان يهرب من تحتها ، وبدا بروتوسايف وباشماكوف أناس أفاضل في ذلك المشهد ، وكان الخزي والعار من نصيب فيوريير ويابلونوفسكي .

٤٠٨ يابلونوفسكي (بيتروسوف) سيرجي فيكتوروفيتش (١٨٧٠- ١٩٥٣ باريس) وهو صحفي ، شاعر ، ناقد أدبي ومسرحي وفي عام ١٩٢٠ رحل من مصر إلى فرنسا .

في صباح اليوم التالي كانت السعادة تغيم علي كل من سمع اسمه بالقائمة، وهرع الجميع ليجمع حقائبه ومتعلقاته، وسمح لهم ممثلونا والقادة الإنجليز طبقا للقائمة بعبور بوابات الحجر الصحي، والسير واحداً تلو الأخر ليشغلوا أماكنهم في القطار الذي جاء حتى الحجر الصحي. وكان القطار أنيقاً للغاية، تشبه عرباته عربات قطار الدرجة الأولى، ليقنعونا بالفعل أننا ضيوف «الملك البريطاني» وبأننا سننتقل للحياة داخل فيلات فاخرة تم استئجارها خصيصاً لنا بأمر من الملك البريطاني، ولكن لا أحد يعلم مدة إيجار هذه الفيلات ؟ !

أثناء الطريق وبناءً على تعليمات الملك المضياف، كان يوزع علينا الشاي مع البسكويت. يقوم بتوزيعها الجنود الإنجليز على عربات القطار. في نفس الوقت أُتيحت لنا الاستمتاع برؤية المشاهد الجميلة في مصر، وشاهدنا في الطريق فيلات و بيوت الأثرياء، وكنا نحاول أن نرسم في مخيلتنا شكل الفيلات التي استأجرها لنا السادة الكرماء. واليوم بدأت السيدات الرقيقات يحلمن بتناول فنجان الشاي في شرفة الفيلا التي سيسكن بها. وفي تمام الساعة الخامسة مساءً توقف القطار بالقرب من إحدى المحطات الكبرى، وقد قرأنا اسمها على اليافطة القائمة في المحطة وهي محطة الزقازيق. وحيث أننا لم يسبق لنا أن اطلعنا علي خريطة لمصر من قبل. ولسنا على دراية بشبكة السكك الحديدية بها، لذا فإن هذه اليافطة لم تعلمنا بشيء. وفجأه جاء أحد الأشخاص إلينا وقال «تفضلوا سعادتكم إلى هنا. كيف تفسرون لنا هذا الوضع ؟ قام زملائي باصطحابى إلى خريطة للسكة الحديد بمصر، كانت تلك الخريطة معلقة في نهاية إحدى عربات القطار. لنكتشف أننا قد تجاوزنا القاهرة منذ مدة، وأنها توجد بعيدا على اليمين من موقعنا، وأن محطة الزقازيق التي توقف القطار عندها ما هي إلا محطة تتوسط المسافة بين القاهرة والسويس. لقد زاد هذا الموقف من حيرتنا بعض الشيء، علاوة على ذلك فقد تذكر أحد الموجودين أن القنصل في الإسكندرية قد تكهن بحدوث شيء من هذا القبيل وعلى بالرغم من ذلك فما زلنا نحتفظ بدرجة من التفاؤل. عندما توقفنا في الزقازيق، أدركنا حينئذ السبب وراء زيادة الحمل على الخط الرئيس الإسكندرية – القاهرة. وأن تشغيل قطار عاجل في حالة الطوارىء يتطلب ضرورة استخدام طرق دائرية، ولذا سيبدأ القطار الآن في السير بالإتجاه المعاكس وسنصل إلى القاهرة في غضون ثلاث ساعات. حيث لم يتبق سوى ساعة واحدة على حلول المساء. بات واضحاً لنا أننا لن نفلح اليوم في توزيع

أنفسنا على الفيلات التي استأجروها لنا ولكن مع حلول الصباح ... فجأة أطلق القطار صفارته المعتادة ، ولكنه لم يأخذ إتجاهه إلى القاهرة بل سلك الاتجاه الذي يبتعد عن القاهرة . إعتقدنا آنذاك أن مساكننا لن تكون بالقرب من القاهرة . عدتُ إلى مكاني لكي أحدث زملائي عن المخاوف التي تملأ رأسي والشكوك حول مسألة تسكيننا في فيلات جاء رد السادة والسيدات من زملائي : «إنك دائما ماتختلق أشياء غير سارة» .

بعد مرور أربعين دقيقة ، بدأ القطار يبطيء من سرعته . لقد كان من الصعب علينا أن نتخيل أن ذلك المكان الذي يقطعه القطار من الممكن أن يكون هو الموقع الذي سيعيش فيه «ضيوف الملك» . فعلى الجانب الأيمن للطريق توجد قناة مائية قذرة، وبشعة بالإضافة إلى بعض القرى الصغيرة ، والجو العام الغالب على المكان يمكن وصفه بالكئيب . وعلى الجانب الأيسر على مدى البصر كانت تمتد رمال الصحراء التي لا تحتضن شجرة واحدة ولا حتى عشباً أخضر . أخذ القطار يبطء من سرعته رويداً رويداً ، إلى أن توقف تماماً في المحطة . ليبدو لنا فيما بعد أنها محطة التل الكبير .

حاول أحد الاشخاص أن يخيف السيدات اللاتي معنا بالقطار ، أن هذه هي نهاية المطاف وانتهاء الرحلة ، ولكن لا أحد كان يصدق هذا الواقع السخيف . وفجأة سرى الهمس الممزوج بالخوف بين ركاب القطار ، إذ شوهد بين البيوت الطينية التي شيدتها حيوانات الخلد أو الطوبينيات رجلان يمشيان ، قد أتيا من الطريق الصحراوي أشبه بجنودنا الروس! وقام البعض بتهدئة الموقف ، وقالوا بأنهم جنود إنجليز . وفي هذه اللحظة تحرك القطار وبدأت مشاعر الخوف تزول إلا أن الأمر لم يدم طويلاً . فقد عاود القطار ليستكمل سيره بشكل بطيء للغاية واتجه نحو الشرق ببطء مسافة ٤٠٠ خطوة ، وتوقف عند رصيف عسكري . دخل شخص ما إلى عربة القطار وقال بصوت مهيب : «لقد وصلنا أيها السادة وعليكم بالنزول الآن !» .

كان من الصعب أن أصف لكم ملامح اليأس التي ارتسمت على وجوه جميع اللاجئين، فعندما نزلوا من القطار ، وصلوا إلى المنطقة العسكرية ليشاهدوا بأم أعينهم المصير الذي آلوا إليه في نهاية الرحلة . سمعنا تنهدات السيدات وأصوات الرجال المختنقة وتتسائل : «أنى لنا العيش في هذا الكامب ؟» [٤٠٩] . وتعالت في مكانين صيحات هيستيرية ، وأغرورقت

٤٠٩ Camp يقصد به معسكر (من الإنجليزية) .

عيون الكثيرين بالدموع. وسرعان ما تبخر حلم الإقامة داخل الفيلات، وارتشاف فنجان الشاي في الشرفة لنستيقظ على واقع أليم وهو العيش في الصحراء الأفريقية صيفاً، وداخل معسكرات الجنود المحاطة بالأسلاك الشائكة، وأفراد حراسة في كل مكان وبدلاً من تناول فنجان الشاي، والمرطبات في الشرفات الخلابة شربنا دموعنا الغزيرة. ووسط هذا الزخم من الدموع، طالبت بعض السيدات بإرسال برقية إلى الملك البريطاني مهددات بقتل أنفسهن في حال رفض مطالبهن! لقد كانت الصورة بالفعل مأساوية للغاية. وبالرغم من أنني لم أكن سيدة، وكنت رجلاً عسكرياً، إلا إنني أقولها صراحةً إننى قد أصابتنى الصدمة إلى حد ما، مدركاً ضرورة تقصير أيامي في الصحراء الأفريقية وبعيون حزينة أتفحص منظر المعسكر الإنجليزي المشيد في قلب الصحراء. لقد نجح المهرجون الإنجليز الأقوياء في إقناع السيدات الروس (وكذلك عدد كبير من الرجال) بالإقامة في الفيلات ثم إذا بهم يقذفون بنا في الصحراء!

من أرشيف مكتبة «روسكي زاروبيج»، الملف رقم١، قضية م-٨٦، السطور من ١٤٩٠-١٤٩٧.